ولا تَعَصُّباً، يا صديقي. أنْ نَذكُرَ قتلانا وأسرانا وشهداءنا وقرانا المسفوكة، فهذا أمْرٌ لازمٌ لصحّتنا العقليّة، ودليلٌ بأنّنا لم نَزَلْ جديرين باحترامنا لأنفسنا (كمعطىً تاريخي ووجوديّ) ولمحيطنا الذي أنْجَبنا وأنجبناه. وذلك لا يعني أن تكون الذاكرةُ نقيضاً للتطوّر، بل إنّ التطوُّر غيرَ المستند إلى ذاكرةٍ لَهُوَ قَفْزٌ في الفراغ... وربّما قَفْزٌ في أحْضَانِ الأعْداء. ومثلما يسمح الإسرائيليّون وأنصارهم لأنفسهم بالتباهي بشهدائهم مِنْ رابين نزولاً إلى ضحايا الهولوكوست المنسوبين - زوراً وسرقة - إليهم... فليسمحوا لنا أن نذكر فتحي الشقاقي وغسان كنفاني وأبو جهاد وشهداء صبرا وشاتيلا ودير ياسين والقبّية وأطفال الحجارة ومعوّقي الانتفاضة - فالذّاكرة، حتى في معرض التفاوض مع الأعداء، أضمن للسّلام المرجوّ وأكثر ترسيخاً لَهُ.

وأمّا إذا كنت تردّ تطرُّفي إلى رفضي السّلامَ الحالي، فجوابي أنّ هذا السلام المزعوم ينثر بذور حَرْبٍ جديدة بيْنَ العرب و«إسرائيل»، وبين العرب والعَرَب، وبين الإسرائيليين والإسرائيليين. فهو سلامٌ تَرفضه الأكثريةُ الساحقة مِن العَرَب، كما أُرَجِّح، فيما لو جرى استفتاء حقيقيّ حَوْلَه؛ وهو سلامٌ يرفضه نصف المجتمع الإسرائيلي الّذي تَرَبّى على العداء للعَرَب. وأما مَنْ بقي مِنْ مؤيِّديه في صفوف العَرَب، فأنت تعلم بدون شكّ مدى شعبيّتِهم «المطلقة»!

الذّاكرة غير الحقد وغير الأسطورة، تماماً، كما أنّ المقاومة غير الإرهاب. تلك ثنائيّات قد تَبْدو للعقل الإعلامي الأمريكي واحدة، لكنّها للشعوب المضطهدة قِوامُ حياتها ونضالها. نتذكّر: أي نَحْذَرُ مِنْ كل مخطّط جديد خُلْبيّ مخادع، ونَسْتَلُّ مِنْ ذاكرتنا ما يكشف أسطورةَ السّلام الإسرائيلي والديموقراطية «اليلتسينيّة» التي روّجتموها في إعلامكم الأمريكي... حتى صدّقَها بعضُ العرب الأذكياء.

برنستون - نيو جرسي
٧ تشرين الثاني ١٩٩٥

تحية إلى نزار قباني

معركة «المهرولون»...

سهيل إدريس

يتابع نزار قباني على شاشة التلفزة حفلة توقيع بعض الرؤساء العرب في حديقة البيت الأبيض في واشنطن على اتفاقية ياسر عرفات مع العدّو الصهيوني، فيشعر بالذلّ والمهانة، وتترقرق الدموع في عينيه، ثم يشعر بالغضب يهزّ كيانه، فتتفجّر شاعريّته بقصيدة «المهرولون».

حين تلفنتُ له الى لندن لأُحيّيه على رائعته، قال لي إنه لا يفهم كيف حدث له، للمرة الأولى، أن أنجز قصيدة طويلة مثلها بأقلّ من ساعة!

قلت له: بلى، أنا أفهم. إن نبض الأمة العربيّة هو الذي خفق في نبضك، وتلقائيتك هي تلقائيّتها. إنّك، أيها الشاعر، وجدانها الصادق.

***

وبقدر ما جاءت «المهرولون» شامخة، جاء ردّ نجيب محفوظ ركيكاً!

قال إنّه لا يحقّ لنزار قباني أن يلعن المهرولين، ولكنه لم يتساءل كيف حُق له هو نفسه أن يبارك مبادرة السادات حين طار زائراً تل أبيب، بالرغم من «رفض معظم المثقفين المصريين والعرب عموماً لها» باعترافه هو نفسه!

والحقّ أن موقف نجيب محفوظ من قصيدة نزار كان متخبّطاً حين حكم بأنها «قصيدة قويّة وموقفٌ ضعيف». ما هما مقياسا القوّة والضعف في هذه الحالة؟ هل يقصد أن الأداء واللغة والأسلوب كلّها قويّة، ولكن الفكرة ضعيفة؟ إذا ضربنا صفحاً عن

قضية تلازم الشكل والمضمون، فكيف نفسِّر إقراره بأن معظم المثقفين المصريين والعرب، ومعظم أفراد الشعب العربي يؤمنون بنظرية نزار، ثمّ يدّعي ان الموقف ضعيف؟ لقد أبدى محفوظ «تقديره لما حوته القصيدة من نداء للعرب بأن يهبّوا، واعتبر ذلك أملاً نتطلّع إليه جميعاً» ... فما دام الأمر كذلك، ألا يقضي على هذا الأمل أن نتفاوض على النحو الذي يجري منذ اتفاق أوسلو؟ لقد خانه التعبير دون شك، وكان حسبه أن يقول، بعد اعترافه بقوة القصيدة، إنه يختلف مع فكرتها، فأن تخالفني في الرأي لا يعني قطّ أني ضعيف وأنك قويّ. وقد ردّ نزار عليه بقوله «لا يحقّ للأستاذ نجيب محفوظ أن يعيّن نفسه قاضياً ويصدر حكماً متسرّعاً على قصيدة تتعارض مع خطّه السياسيّ. فما يعتبره هو «موقفاً ضعيفاً، أعتبره أنا موقفاً شجاعاً ... وما أعتبره أنا موقفاً انبطاحيّاً، يعتبره هو موقفاً واقعياً وبراغماتياً ...»

والواقع ان السياسة الساداتية قد أحدثت فرزاً واضحاً في صفوف المثقّفين العرب، فكانت هناك فئة قليلة تناصره، في حين أن الغالبية الساحقة من المثقفين، تعارضه، ولاتزال.

ونحن مع نزار قباني حين يقول:

«إن ما يطرحونه علينا ليس سلاماً، بل «مصّاصة من كاوتشوك» لا حليب فيها، وزجاجة من النبيذ لا قعر لها.. ورسالة حبّ مكتوبة بالحبر السرّيّ ... ما يعرضونه علينا يأخذ ما فوقنا وما تحتنا، ويتركنا على الحصيرة. فالمستعمرات في خاصرتنا، والمسجونون في سجونهم، والمنفيّون في منافيهم، وانتقال المواطنين من أرض فلسطينية إلى أرض فلسطينية تحت رحمتهم .. والخليل مؤجّلة ... وحريّتنا وأعمارنا وأحلامنا ... كلّها مؤجّلة ... فماذا بقي لنا من فلسطين في ظلّ هذا السلام البائس؟»

وفي هذا السياق، نستشهد بما قاله مناضل فلسطيني كبير، ومفكّر قدير، هو الأستاذ أنيس صايغ (السفير ١٤ تشرين الأول):

«أوّد أن أشير الى نقطة لفتت نظري، (ولم تثر استغرابي، على فظاعتها!) وهي تحويل المدن والقرى الفلسطينية «المحرّرة» في ظلّ سلطة «الحكم الذاتيّ» الى مجموعة متناثرة ومتنافرة من الكانتونات والجزر التي لا تستطيع أنت «المتحرّر» من الحكم الاسرائيلي، أن تعبر من واحدة منها إلى أخرى الا بعد أن تمرّ على حواجز ونقاط تفتيش يقيمها الوجود العسكري «الاسرائيليّ»، سواء من جيش «الدفاع» الرسميّ، أو قوّة الحدود، أو من «زعران» المستوطنين الصهيونيين المسلّحين (وهم بالمناسبة نالوا الاعتراف الرسميّ من السلطة «الاسرائيلية» وبالتالي فانهم نالوا اعترافاً رسمياً غير مباشر من السلطة الفلسطينية المحليّة» (...) ذلك ان اتفاق ٢٤ أيلول الذي «حرّر» مناطق من الضفّة الغربيّة المحتلة سنة ٦٧ لم يسحب الجيش الاسرائيلي من وجوده بين المدن والقرى «المحرّرة». واكتفى الاتفاق بإخراج القوات الإسرائيلية من داخل المدن والقرى الى ما يحيط بها من أراضٍ مجاورة! كما أن الاتفاق لم يلغ المستوطنات الصهيونية التي بنيت كلّها في الأعوام الثمانية والعشرين الأخيرة (وهي تزيد على مئة مستوطنة) بل أبقاها على حالها، وأبقى لمستوطنيها وجودهم وتشكيلاتهم المسلّحة (...) فلسطين تصبح اليوم أرضاً يحمل نصفها اسم «اسرائيل» وينتزع من أهلها حقّهم الوطنيّ المشروع، ويتمزّق النصف الثاني بين عشرات الوحدات الصغيرة حجماً وقيمة. أحجار فسيفساء متنافرة، لا يلتحم بعضها ببعض لوجود عناصر غريبة ودخيلة، عسكرية ومدنيّة، بين الواحد والآخر».

***

ونعود الى حجج الأستاذ نجيب محفوظ واتّهامه لنزار قباني بضعف قصيدته، فنراه يعزو هذا الضعف الى أن الشاعر لم يطرح ما يسمّيه هو «البديل». فإذا سأله أحدنا: ما بديلُهُ هو، تبنّى رأي السياسيين العرب ولم يتبنّ رأي الشعب.

يطالب نجيب محفوظ نزار قباني بالبديل.

وبديل السياسيين العرب هو قبول الواقع. أما بديل الشعب فهو رفض الواقع.

وواقع السياسيين العرب هو الاستسلام للهزيمة. أما «واقع» الشعب فهو رفض الاستسلام.

وحتى المفاوضون الفسطينيون، نراهم بعد مفاوضات، يصفونها بأنها صعبة وشاقّة، يقبلون بالواقع لأنهم يكتفون بالفتات الذي يقدّمه العدوّ.

إن بديل الهرولة هو، كما قال فيصل جلول (الحياة، ا تشرين الثاني) «رفض الهرولة» على الأقل كي لا تتحوّل الى عَدْوٍ سريع، ورفض الهرولة يسمح بمكاشفة علنيّة مع المهرول، وسؤاله عن الماضي والمستقبل وتحذير مَنْ يَرْغَب من مخاطر الهرولة وراءه، وتمييز «الأنا» عنه، حتى يفطن الآخرون أن العرب لا يمكن قياس ماضيهم ومستقبلهم بـ «المهرولين» وأن فيهم من هو قادر على أن يقول بجرأة «لا أنا من قبيلة المهرولين ولا هي مني» (...) إن غياب كل «بدائل» الكون يجب ألاّ يحملنا على الهرولة نحو العدوّ، على الأقلّ حتى لا نصبح مقياساً للهزيمة والإهانة، وحتى لا يصبح تعريفنا في قاموس البشرية: عربيّ (يساوي) الاستسلام قبل بدء المعركة»

ولسنا بحاجة الى جهود مُضنية لإيراد «البديل»!

فهو واضح وقائم بل بارز بما يقوم به: المقاتل والمناضل والمنتفض ومالئ قلب العدوّ بالرّعب! المقاوم في كلّ أرضٍ يحتلّها الاسرائيليون: فلسطين وجنوب لبنان والبقاع الغربيّ. المعارض العنيف لكل المستسلمين والمهادنين، رجال الجبهات الفلسطينية والعربية في كل مكان، وذلك بالرغم من أن موقف المسؤولين في القيادة الفلسطينية والأنظمة العربية تواطأوا مع العدّو الاسرائيلي / الأميركي على اعتبار المقاومين والمقاتلين إرهابيين!

***

أما لطفي الخولي الذي عثر على «بديل» كامب ديفيد في مشروع ياسر عرفات للتحرير، فلا حاجة بنا الى تفنيد رأيه، لأنه كان قد سقط منذ دخل في نفق أبي عمار وانتقل من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين ... ويبقى مضحكاً عندما يفتي بأن كلمات قصيدة نزار «ملساء مسطّحة» وأنه «شعر صحافي، خفيف»

وأنا من الذين يعتقدون أن عبقرية نزار قباني تكمن في بساطة شعره، هذه البساطة البلاغية أو الإبلاغيّة التي يعجز معظم الشعراء العرب المحدثين عن مجاراته فيها، والتي حققت له هذا الحضور الشعبيّ الأوسع لدى جميع لناس، البسطاء منهم وغير البسطاء، حتى وصفه بعضهم بأنه «أحد أعمدة الوحدة العربية الحقيقية، التي خلقت وجداناً مشتركاً من المحيط الى الخليج» (سعد الدين ابراهيم، «الحياة» ٣٠ تشرين الأول).

لقد كان نزار قباني، ولايزال، أكثر الأدباء والشعراء حضوراً في مختلف اللحظات والمفاصل التاريخية المعاصرة، يعبّر عن مشاعر الناس وانفعالاتهم، وينقل أصدق رعشاتهم، ويجسّد آلامهم وأشواقهم.

تحيّة الى نزار قباني، ضميراً لهذه الأمّة.